بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث

٤ /٤ /١٤٤٠

فصلٌ

لمّا فصلت عيرُ السّيرِ، واستوطن المسافر دار الغُربة، وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه، أحدثَ له ذلك نظرًا آخر، فأجال فِكره في أهمّ ما يقطع به منازل سفره إلىٰ الله، ويُنفق فيه بقية عمره، فأرشده من بيده الرُّشد إلىٰ أنّ أهمّ شيءٍ يقصِده إنما هو الهجرة إلىٰ الله ورسوله، فإنها فرضُ عينٍ علىٰ كل أحد في كل وقت، وأنّه لا انفكاك لأحد من وجوبها، وهي مطلوب الله ومراده من العباد.

إذ الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلىٰ بلد، وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: هجرة بالقلب إلىٰ الله ورسوله، وهذه هي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية؛ وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها، وهي هجرة تتضمن (من) و(إلىٰ):

- فيهاجر بقلبه من محبة غير الله **إلىٰ** محبته.
- ومن عبودية غيره **إلىٰ** عبوديته.
- ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه **إلىٰ** خوف الله ورجائه والتوكل عليه.
- ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له، **إلىٰ** دعاء ربه وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له...

وهذا هو بعينه معنىٰ الفرار إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠] فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، اللّٰهُمَّ علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

أما بعد.. هذا فصلٌ عظيم عقده الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في رسالته هذه المباركة «الرِّسالة التبوكية»، بيّن فيه مسألة مهمَّة عظيمة؛ بل هي فريضة من فرائض الله ﷻ، وهي الهجرة إلىٰ الله ورسوله ﷺ، هجرةٌ إلىٰ الله جل وعلا: بالإخلاص، والإذعان، والعبودية، والذل، والخضوع، وحسن التوكل علىٰ الله، وحسن الإقبال

عليه جل في علاه.

وهجرة إلىٰ رسوله ﷺ: باتباعه، واتخاذه أسوة وقدوة، وبالاهتداء بهديه، ولزوم نهجه، وترسم خطاه، صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه الهجرة فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة، ويستشعر قيمتها وعظم شأنها عندما يستشعر أو عندما يتأمل في المدخل الذي دخل منه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الفصل، في الحديث عن موضوع الهجرة، وهو تصوير حال المسلم بأنه في هذه الدنيا كالمسافر، ولعل من أبين ما يبيّن هذا قول النبي ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

فالمؤمن في هذه الدنيا في سفر، ولا يزال مع مرّ الأيام والشهور والأعوام يمتدُّ هذا السفر، ومن بعده الرحيل إلىٰ الله ولقائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيحتاج هذا المقام أن يتيقَّظ هذا المسافر، وأن يستشعر عِظم شأن هذا السفر الذي هو فيه، وهو السير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والدار الآخرة، فينظر ماذا عليه أن يحمله من زادٍ للقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتصوَّر نفسه في هذه الدنيا كالغريب أو عابر السبيل، وأنتم تعلمون أنّ الغريب إذا دخل إلىٰ بلد، وأشدّ منه العابر للبلد عبورًا، لا يكون شأنه فيها كشأن المقيم المستوطن.

وهذا فيه أنّ هذا المسافر إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا ينبغي له أن تشغله الدنيا الزائلة الزائفة، وأن يشغله زُخرفها عن هذا السفر، الذي من بعده لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، من هنا دخل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ للحديث عن الهجرة وأهميتها، قال: (فأرشده من بيده الرشد) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ (أن أهم شيء يقصده إنما هو الهجرة إلىٰ الله ورسوله) ﷺ.

والهجرة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإخلاص، والإقبال علىٰ الله، وبالذل والخضوع والانكسار بين يديه، وتحقيق العبودية له جل في علاه.

والهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام: بالاتباع، والائتساء، والاقتداء بهديه الكريم ونهجه القويم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: فإن هذه الهجرة (فرض عين علىٰ كل أحد)، علىٰ كل مسلم ومسلمة وفي كل وقت، هذه الهجرة لا تتعلق بزمان ولا تتعلق بمكان، وإنما هي مطلوبة في كل زمان وفي كل مكان، من كل مسلم ومسلمة، و(لا انفكاك لأحد عن وجوبها)، فهي واجبة وجوبًا عينيا علىٰ كل مسلم ومسلمة في كل وقت وكل وزمان.

والهجرة المعنية هنا هي كما بيَّنها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (هجرةٌ بالقلب إلىٰ الله ورسوله)؛ لأن الهجرة نوعان: هجرة بالبدن وهجرة بالقلب.

هجرة البدن: من ديار الكفر إلىٰ ديار الإيمان، أو من ديار الخوف إلىٰ ديار الأمن، هذه لها أحكام معروفة

وتقرر كثيرا ولا سيما في كتب الفقه.

لكن هذه الهجرة الأخرىٰ «هجرة القلب» قليل من يتحدَّث عنها، كما ينبِّه علىٰ ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، مع عِظمها وأهميتها، (هجرة بالقلب إلىٰ الله ورسوله) ﷺ، قال: (وهي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقيّة، وهي الأصل) وهجرة الجسد تبعٌ لها.

ولهذا سبحان الله يوضِّح لك هذه التبعية، أنَّ من كان مثلا في ديار الكفر فحصل لقلبه هجرة إلىٰ الله ورسوله، أنعم الله عليه وأكرمه بهجرة قلبه إلىٰ الله ورسوله ما الذي سيحدث للبدن؟! الأمر ينتهي، لأن البدن تابع للقلب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، فالبدن تابع للقلب، والقلب متبوع في الخير والشر، إن صلح واستقام، صلح البدن واستقام، وإن فسد واعوج، فسد البدن واعوج، فالبدن لا ينفكّ عن متابعة القلب.

فالهجرة الحقيقية هجرة القلب- الهجرة الحقيقة هجرة القلب إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، إلىٰ الله بالعبودية، وإلىٰ الرسول بالمتابعة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(وهي هجرة تتضمن (من) و(إلىٰ)) مثلما أنّ هجرة البدن من وإلىٰ، من بلد إلىٰ بلد، هجرة القلب أيضا من وإلىٰ، من ماذا؟ وإلىٰ ماذا؟ ذكر أمثلة توضح، قال: (فيهاجر بقلبه) من محبة غير الله إلىٰ محبة الله، ومن عبودية غير الله إلىٰ عبودية الله، (ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلىٰ خوفه) وحده سبحانه، (ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره) وسؤال غيره والالتجاء لغيره والخضوع لغيره والذل لغيره، إلىٰ الخضوع له والذل له والاستكانة له، وإفراده وحده ﷻ بالدعاء وصدق الالتجاء، (وهذا هو بعينه معنىٰ الفرار إليه)، في قوله ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ قال: (فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله) إلىٰ الله ﷻ.

وتحت (من) و(إلىٰ) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، فإنّ الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئة الله وحده، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فإذا فر العبد إلىٰ الله فإنما يفر من شيء إلىٰ شيء وُجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتحت (من) و(إلىٰ)) فيما تقدَّم، الهجرة تحتاج من وإلىٰ، وضرب علىٰ ذلك أمثلة توضح

المراد، (تحت (من) و(إلىٰ) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد)، هذا السر الذي يتحدث عنه هو في شأن الفرار إلىٰ الله ﷻ، وهو الهجرة التي يتحدث عنها رحمه الله تعالىٰ، قد قال الله سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾ [الذاريات].

وهذا الفرار إلىٰ الله ﷻ يتضمَّن ويندرج تحته نوعي التَّوحيد، توحيد الألوهية الذي هو الذُّل والخضوع لله ﷻ، وإفراده ﷻ بالعبادة، كما قال ابن القيم: (يتضمَّن إفراده بالطلب والعبودية) وهذا يسمَّىٰ التوحيد الطلبي، أو التوحيد العملي، توحيد الإرادة والطّلب، أو توحيد العبودية، (يتضمَّن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليه دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

مثلما قال الله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ...﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء]، قال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف]، فهذا موطن اتفاق في دعوة جميع المرسلين، بل إنّ أول ما يقرع سمع الأقوام من أنبيائهم هو هذا ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩، و٨ مواضع غيرها]، وهو معنىٰ لا إله إلا الله، كلمة التوحيد.

كما أنه يتضمَّن (توحيد الربوبية وإثبات القدر)، يتضمّن توحيد الربوبية: وهو إفراد الله ﷻ بأفعاله، وأنَّه وحده المدبِّر، وأنّ الخلق كلهم طوع تسخيره وتدبيره، لا خروج لهم عن نفوذِ مشيئته وشمولِ قدرته، (فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن)، لا مانع لما أعطىٰ ولا مُعطي لما منع، ولا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض، ولا مُعز لمن أذل ولا مذل لمن أعز، ولا خافض لمن رفع ولا رافع لمن خفض، الأمر أمره، ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن] ﷻ.

وإذا أيقن المسلم أو كان المسلم من هذا علىٰ يقين، لم يجد إلا الفرار إلىٰ الله ﷻ، الفرار إلىٰ الله من كل شيء، يكون هو المَفزع، هو الملجأ، ويكون المؤمن علىٰ يقين أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ولا مفر إلا إليه ﷻ، (فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأنّ كل ما في الكون من المكروه والمحذور)، والأمور المخوفة التي يفر منها الناس، فإنما أوجبته مشيئة الله، لأنّ الأمر كلَّه بقدره ﷻ، كلّ شيء بقدر، (فإنه ما شاء) الله (كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم مشيئته، فإذا فر العبد إلىٰ الله فإنما يفر من شيء إلىٰ شيء وُجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إلىٰ الله).

ومن تصوّر هذا حقَّ تصوره فهِم معنىٰ قوله ﷺ: «**وأعوذ بك منك**» وقوله ﷺ: «**لا ملجأ ولا منجىٰ منك ألا**

إليك» فإنه ليس في الوجود شيءٌ يُفرّ منه ويُستعاذ منه ويُلجأ منه، إلا وهو من الله خلقًا وإبداعًا، فالفارّ والمستعيذ: فارٌّ ممَّا أوجبه قدر الله ومشيئته وخلقه، إلىٰ ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه، ففي الحقيقة هو هاربٌ من الله إليه، ومستعيذٌ بالله منه.

قال: (ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنىٰ قوله ﷺ: «وأعوذ بك منك» وقوله: «لا ملجأ ولا منجىٰ منك ألا إليك»)، هذان دعاءان كلاهما ثابت عن نبينا ﷺ، الأول في باب التعوذ، والثاني في باب السؤال، وفيهما المعنىٰ الذي قرَّره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وأنّ العبد إذا حقَّق الإيمان بالقدر، وأنّ الأمور كلَّها بمشيئة الله، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لم يكن فَزَعه في أي نائبة، ولم يكن فِراره في أي حدث أو نازلة إلا إلىٰ الله ﷻ، فيستعيذ بالله، ويلتجئ إلىٰ الله ﷻ، ويصمُد إليه وحده، فهو الذي تصمد إليه الخلائق، وهذا من معاني اسمه الصمد ﷻ، الذي تصمُد إليه الخلائق، أي: تلتجئ إليه وتعتصم به ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران].

قال: (فهو معنىٰ قوله: «وأعوذ بك منك») ومعنىٰ «لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك» وهذا في كل أمر يستعاذ منه، وفي كل أمرٍ يفر منه، وفي كل أمرٍ يطلب المرء النجاة منه والخلاص، لا مفر في شيء من ذلك إلا إلىٰ الله، ولا مفزع إلا إلىٰ الله ﷻ، «لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك» هذا جاء في حديث البراء الذي يقال في كل مرة يأوي فيها المسلم إلىٰ فراشه، هو تجديدٌ لهذا الإيمان وهذا الالتجاء، في كلِّ ليلة من الليالي يجدِّد المرء هذا الإيمان وهذا التسليم وهذا الالتجاء إلىٰ الله ﷻ.

(فالفارّ والمستعيذ: فارٌّ مما أوجبه قدر الله ومشيئته وخلقه، إلىٰ ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، ومستعيذ بالله منه) وهذا إنما يكون علىٰ ما بيّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عند تحقيق الإيمان بالقدر ونفوذ المشيئة وشمول القدرة، وأن الله ﷻ هو المدبّر لهذا الخلق، وأنّ الخلق كلهم طوع تدبيره وتسخيره جل في علاه، مشيئته فيهم نافذة، وقدرته شاملة جل وعلا.

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع علق قلبه من غير الله بالكلية، خوفًا ورجاء ومحبة، فإنه إذا علم أنّ الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه، لم يبق في قلبه خوفٌ من غير خالقه وموجده، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته لكان ذلك موجبًا لخوفه منه، مثل من يفر من مخلوق إلىٰ مخلوق آخر أقدر منه، فإنه في حال فراره من الأول إلىٰ الآخر خائفا منه حذر، ألا يكون الثاني يعيذه منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضىٰ وقدّر وشاء ما يفر منه، فإنّه لا يبقىٰ في القلب التفات إلىٰ غيره بوجه.

وكل هذا إنما يتحقق للعبد مع تمام الإيمان بالقدر، وأنّ الأمور كلها بمشيئة الله ﷻ، وأنه لا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء إلا بمشيئة الله، فإذا كان هذا الإيمان متحققا في قلب العبد، تحقق في قلبه هذا الفرار إلىٰ الله والفزع إليه، وتحقق هذا الإيمان والالتجاء، «**لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك**»، كل هذه إنما تتحقق مع تحقق الإيمان بالقدر، وأنّ الأمور كلها بمشيئة الله ﷻ.

فتفطَّن لهذا السر العجيب في قوله ﷺ: «**أعوذ بك منك**» و«**لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك**»، فإنّ الناس قد ذكروا في هذا أقوالًا، وقلّ منهم من تعرَّض لهذه النكتة التي هي لبّ الكلام ومقصوده، وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلىٰ الفرار من الله إليه، وهو معنىٰ الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**»، ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة في القرآن في غير موضع، لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود أنّ الهجرة إلىٰ الله تتضمن: هجران ما يكرهه، وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلىٰ شيء لابد أن يكون ما يهاجر إليه أحب إليه مما يهاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه علىٰ الآخر، وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوه إلىٰ خلاف ما يحبه الله ويرضاه، وقد بُلي بهؤلاء الثلاث، فلا تزال تدعوه إلىٰ غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة ربه، فعليه في كل وقت أن يهاجر إلىٰ الله، ولا ينفك في هجرةٍ حتىٰ الممات.

أورد هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**»، وهذا فيه بيان الهجرة، وهذه الهجرة هي فريضة علىٰ كل مسلم، ومتعينة علىٰ كلّ مسلم أن يَهجر ما نهاه الله عنه، وهجر ما نهاه الله عنه بتركه وعدم قربانه مبني علىٰ هجرة القلب كما سبق البيان، فإنّ القلب إذا استقام بهذه الهجرة إلىٰ الله استقام البدن بفعل ما يحبُّه الله ﷻ والإقبال عليه، ومجانبة ما يُسخط الله ويغضبه جل في علاه، قال عليه الصلاة والسلام: «**والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**».

وهذا الحديث يمكن أن يكون مقياسًا للمرء وميزانًا في هذا الباب (باب الهجرة الواجبة المتعيِّنة)، لأنّ ضعفه وقصوره وتقصيره في هجر ما نهىٰ الله ﷻ عنه هو من ضعف هجرة قلبه إلىٰ الله ﷻ عبودية، وإلىٰ الرسول ﷺ متابعةً وتأسِّيًا واقتداءً بهديه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (والمقصود أنّ الهجرة إلىٰ الله تتضمَّن: هجران ما يكرهه وإتيان ما يحب)، (هجران ما يكره): التي هي المعاصي والذنوب بأنواعها، (وإتيان ما يحب ويرضىٰ)، وهي الطاعات والقُرَب بأنواعها، قال: (وأصلها الحب والبغض)، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله**» وقال في

الحديث الآخر: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**».

قال: (فإنّ المهاجر من شيء إلىٰ شيء لابد أن يكون ما يهاجر إليه أحب إليه مما يهاجر منه، فيؤْثر أحب الأمرين إليه علىٰ الآخر)، وهذا يوضح لنا المعنىٰ الذي في الحديث «المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه»، فيبغض الذنوب والمعاصي ويمقتها بقلبه ويكرهها، فيهجرها لله تعبُّدًا وطلبًا لرضىٰ الله، يتركها من أجل الله، ويحب الطاعات والقُرَب، ويفعلها تقربًا إلىٰ الله وطلبًا لمرضاته جلَّ في علاه، وفي الدعاء المأثور: «**اللّٰهُمَّ إني أسألك حبّك وحب من يحبك والعمل الذي يقربني إلىٰ حبك**».

قال: (وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوه إلىٰ خلاف ما يحبُّه الله ويرضاه، وقد بُلي بهؤلاء الثلاث، فلا تزال تدعوه إلىٰ غير مرضاة الله، وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة الله، فعليه كل وقت أن يهاجر إلىٰ الله، ولا ينفكّ في هجرة حتىٰ الممات)؛ لأن هذه الثلاث لا تزال متسلِّطة علىٰ العبد (النفس والهوىٰ والشيطان) لا تزال متسلِّطة علىٰ العبد تثنيه في سيره، وتعيقه في سفره إلىٰ الله ﷻ، وتقطع عليه طريق التزود لنيل مرضاة الله ﷻ، لاتزال هذه الثلاث تتسلَّط علىٰ العبد، فيحتاج العبد إلىٰ هجرة متجدِّدة، بمجاهدة عظيمة للنَّفس ليسلم، لينجو، ليس العجب ممَّن هلك كيف هلك! ولكن العجب ممن نجا كيف نجا! هذه أشياء كلها متسلطة علىٰ العبد تسلُّطًا عظيما، فيحتاج إلىٰ مجاهدة عظيمة حتىٰ تستقيم له هذه الهجرة، ويحتاج إلىٰ مداومة حتىٰ يبقىٰ علىٰ هذه الهجرة إلىٰ أن يموت، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر] أي: الموت، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران].

فصلٌ

وهذه الهجرة تقوىٰ وتضعف بحسب قوة داعي المحبة وضعفه، فكلما كان داعي المحبة في قلب العبد أقوىٰ كانت هذه الهجرة أقوىٰ وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة، حتىٰ إنه لا يكاد يشعر بها علمًا، ولا يتحرك بها إرادة.

محور الهجرة الذي عليه تدور، وأساسها الذي عليه تقوم: المحبة، محبة الله ﷻ، وهذه المحبة لله جل وعلا كلَّما قويت في القلب قويت الهجرة، قويت هجرة القلب إلىٰ الله، وكلَّما ضعفت ضعفت هجرة القلب إلىٰ الله ﷻ، فاحتاج مقامُ الهجرة إلىٰ الله ﷻ إلىٰ تقوية المحبَّة محبة الله ﷻ في القلب؛ لأنها كلما قويت قويت الهجرة، وكلما ضعفت ضعفت الهجرة، فاحتاج هذا المقام إلىٰ مداواة القلب ومعالجته، بتقوية محبة الله فيه، وهذه المحبة، محبة الله في القلب، لها جوالب تجلبها إلىٰ القلب، فيحتاج العبد إلىٰ عناية بهذه

الجوالب وهي عديدة، أهمها عشرة أمور ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كتابه «مدارج السالكين»، عند كلامه علىٰ منزلة المحبة، وهي عظيمة جدًّا، يحتاج العبد إلىٰ أن يعتني بها قراءةً وتأملا وتحقيقا، فهذه الجوالب للمحبة، محبّة الله في القلب، تقوِّي المحبة في القلب، وإذا قويت المحبة قويت الهجرة، قويت هجرة القلب إلىٰ الله عبودية وذُلًّا وخضوعا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا ضعُفت ضعفت الهجرة، (إذا ضعُف الداعي ضعفت الهجرة)، الدَّاعي هو المحبة، (حتىٰ إنه لا يكاد يشعر بها علمًا، ولا يتحرك بها إرادة)، يعني لا تكون فيه لا من الناحية العلمية ولا من الناحية العملية.

والذي يُقضىٰ منه العجب: أنَّ المرء يوسع الكلام ويفرعُ المسائل في الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام، وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربَّما لا تتعلق به في العمر أصلًا.

وأما هذه الهجرة التي هي واجبةٌ علىٰ مدىٰ الأنفاس، فإنه لا يحصِّل فيها علما ولا إرادة، وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له، والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره، وهذه حال من غشيت بصيرته، وضعُفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال، والله المستعان، وبه التوفيق، لا إله غيره ولا رب سواه.

نعم، يعني يذكر أن الهجرة بالمعنىٰ الأول التي هي هجرة البدن، (هجرة الجسم)، يكثر الحديث عنها، ولا ملامة في ذلك، ولا سيما إذا كان الحديث عنها في ضوء الأدلة وتحقيقا للمسائل في ضوء الأدلة، لا ملامة في ذلك؛ لكن إن كان هذا الاشتغال ينصرف به المرء عن هذه الهجرة التي هي فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة، التي هي هجرة القلب إلىٰ الله عبوديةً، وهجرة القلب إلىٰ الرَّسول اتباعا ﷺ، وهي واجبة علىٰ مدىٰ الأنفاس، فينقطع عن الاشتغال بها لا علمًا ولا إرادة، فهذا هو الذي يتحدَّث عنه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ انتقادًا لمن كان كذلك، قال: (وما ذلك إلا للإعراض عما خُلق له، والاشتغال عما لا يُنجيه غيره)، هذا الذي ينجي، ولا تكون النجاة إلا بهذه الهجرة، التي هي فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة.

فصل

وأما الهجرة إلىٰ الرسول ﷺ، فمَعلمٌ لم يبق منه سوىٰ رسمه، ومنهج لم تترك منه بنيَّات الطريق سوىٰ اسمه، ومحجة سفَت عليها السوافي فطمست رسومها، وأغارت عليها الأعادي فغوّرت مناهلها وعيونها، فسالكها غريب بين العباد، فريد بين كل حيٍّ وناد، بعيد علىٰ قرب المكان، وحيد علىٰ كثرة الجيران، مستوحش مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيم إذا ظعنوا، ظاعن إذا قطنوا، منفرد في طريق طلبه، لا يقر قراره حتىٰ يظفر بأرَبه، فهو الكائن معهم بجسده، البائن منهم بمقصده، نامت في طلب الهدىٰ

أعينهم، وما ليل مطيه بنائم، وقعدوا عن الهجرة النبوية، وهو في طلبها مشمر قائم، يعيبونه بمخالفة آرائهم، ويزرون عليه إزراءً علىٰ جهالاتهم وأهوائهم، قد رجموا فيه الظنون، وأذكوا عليه العيون، وتربصوا به ريب المنون ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة]، ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [الأنبياء].

نحـــــن وإيــــاكم نمـــــوت ولا أفلــح عنــد الحســاب مــن نــدما

والمقصود: أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد، وطريقها علىٰ غير المشتاق وعير بعيد.

هذا الفصل يتحدث فيه الإمام ابن القيم رحمة الله عليه عن النوع الثاني من الهجرة، هجرة القلب إلىٰ الرسول ﷺ باتباعه ولزوم سنته واقتفاء آثاره صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ويُرجىٰ الحديث عنه إلىٰ لقاء الغد بإذن الله ﷻ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علما وتوفيقا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

لطلب بعض الأحبة، ندعو الله ﷻ في هذه الساعة ونسأله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، وبأنه الله الذي لا إله إلا هو أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين، نسأل الله ﷿ أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين، نسأله ﷻ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين بمنه وكرمه.